قصة سلامان وأبسال[1]

للشيخ الرئيس أبي على الحسين بن عبد الله بن سينا

(٣٧٥ هـ - ٤٢٨ هـ)

٢ - تحليل شخصيات قصة سلامان وأبسال

« سلامان : إنسان من العارفين - أبسال : العقل النظرى - زوجة سلامان : القوة البدنية - أخت زوجة سلامان : القوة العملية - الجيش : القوى الحسية والخيالية والوهمية - الطابخ والطاعم القوة الغضبية والقوة : الشهوية . »

قصتنا ذات بطل واحد ، عاش مرة على ظهر الأرض ، حينما تكيفت له ظروف وجوده - ما عثرنا له على أثر فى أيونيا أو إيليا أو أثينا ؛ لأن الالٰه اليونانى ، كان إنسانيا بكل معنى الكلمة ، فلم تكن ثمة هوة تفصل بين الانسان والله . وابتدأ جنينا فى الأسكندرية ، ثم صار فى عنفوانه فى ظل المسيحية من جهة والاسلام من جهة أخرى . لقد عمر طويلا جدا ، وتضافرت الظروف الاقتصادية والاجتماعية والسياسية ، على إمداده بالحياة - والحق أن القوة الوحيدة التى استطاعت أن تصرعه هى الآلة ، بما أثارت من انقلاب فى النظام الاقتصادى والاجتماعى والسياسى . لقد ذهب سلامان إلى غير رجعة ، غير أن صورة صراعه الارادى لن تذهب أبداً ؛ لأن إرادة الانسان الحديث ، للقبض على زمام الوجود بأى معنى من معانيه ، لا تختلف عن إرادة سلامان ، إنسان العصور الوسطى ، إلا من حيث هدف الاتجاه . سنظل دائماً نحاول أن نقبض على شئ ليس فى متناول أيدينا، وهذا هو سر الإرادة ، أو سر الحياة عموماً .

كان رائد سلامان ، فى هذا الطريق الوعر ، هو العقل . إن سلامان ماض إلى الله الذى هو عقل محض ، وفكر خالص ؛ فلتكن الأداة التى تذهب

---

(١) الكاتب المصرى عدد ١٦ (يناير ١٩٤٧) .

بسلامان إلى هذا الهدف ، من طبيعة الهدف . العقل النظرى هو المركب الملائم للوصول إلى مملكة الله ؛ فليفكر سلامان ، وليكن تفكيره فى الدرجة العليا ، وما عليه من بأس إن هو تطور تطوراً طبيعيا مع درجات ذلك العقل ، فيبدأ بأن يتعود نزع الصور المجردة من المحسوسات المشخصة ، وهذه هى الدرجة الهيولانية للعقل النظرى ، ثم تنظم هذه الصور على حسب المقولات الأولى العامة كالمبادئ المنطقية ، وهذه هى درجة العقل النظرى الذى يكون فيها بالملكة ؛ و إدراك هذه الصور المجردة ، بعد أن لاءمت بينها تلك المبادئ الأولى ، هو العقل النظرى فى درجة العقل . كل ذلك طبيعى فى حركة إدراكنا للموجودات . ولكن لكى ندرك الله ، لا بد من درجة أرقى من تلك الدرجات الآنفة ، درجة تكاد تكون لا إنسانية ، وهى درجة العقل المستفاد ؛ فالعقل النظرى فى تلك الدرجة ، يكون على استعداد لتلقى الفيوضات الدينية . إنها على كل حال ، درجة من درجات العقل ، ولكنها غير معقولة . وهذا التناقض ، لا يسوّغه إلا أمر واحد ، هو المواضعات الفكرية التاريخية ، التى كثيراً ما أوجدت أشياء ليس لها وجود . من يدرى ! كم فى حضارتنا ذاتها من الموجودات التى ليس لها وجود !

هذا هو سلامان بعقله النظرى . والعقل وحده ملكة سكونية ، فهو يدرك فقط . ولكننا لكى ندرك لابد أن نريد الادراك وننزع إليه . و إرادة الادراك ، غير الادراك لأنها مبدأ محرك — فلا بد لكى يقوم أبسال العقل النظرى بدوره ، من قوة تحرك هذا العقل . هذه القوة المحركة ، هى زوجة سلامان . والحق أن حركة العقل النظرى ، الناجمة عن تلك القوة ، ليست مباشرة ؛ لأنها فى اتجاهها الطبيعى أمارة بالشهوة والغضب ؛ إنها فى حقيقتها شديدة الشبه بمبدأ « الليبيدو » عند فرويد ، ولكن العقل النظرى ، يتحرك بأن ينفر منها ، ويوجه طاقتها إلى الخير ، أى إلى ما يضاد طبيعتها . فى كياننا تعيش تلك المرأة الفاجرة ، وهى ما تنفك تدفعنا إلى انتهاب اللذات ، وتغرينا بعبادة الحب ، وتملأ الدنيا من حولنا بارتعاشات الشهوة ، ولكن ترويضها على الرغم من ذلك ، فى حيز الامكان . إنها و إن كانت جزءا من النفس الحيوانية ، فطاقتها قابلة لأن تستقل فيما هو إنسانى بحت . وسلامان الذى عقد العزم على الرحلة إلى الله ، لا بد أن يعبئ قواه جميعاً . إنه يريد أن يعرف الحقيقة ، والحقيقة وراء الوراء ، وبعد البعد ، ودونها طريق تكتنفه الأهوال والمخاطرات . وأبسال أخو سلامان ، سوف يقود

الركب ، وزوجة سلامان سوف تعوقه وتحاول تضليله ، ولكنه سيقاومها ، وسينتصر عليها ، ويمضى فى طريقه تحدوه أمانى الكشف ، وتغريه لذة الفتوحات الروحية .

سلامان وزوجه وأخوه . أترانا — لو كنا من أشياع مدرسة التحليل النفسى — نستطيع أن نلاحظ فى هؤلاء الثلاثة ، المكونات الرئيسية لعقدة أوديب ؟ أجل ! فسلامان يمثل الأب ، وزوجه تمثل الأم ، وأبسال يمثل الابن ، ولسوف ينشأ الصراع الجنسى بين الابن والأم ، ولكنه لن يمضى إلى حالة يتحقق فيها حصول الابن على موضوع لذته الأولى ، وإلا كان ابن سينا يمثل حركة من الحركات النفسية الشاذة . سيخضع أبسال لمبدأ الواقع ، وينصرف إلى موضوع حب صحيح ، ذلك لأنه سيحب الحقيقة أو الله .

غير أن هذا الحب لن يستغرقه إلى الدرجة القصوى ، إن الحياة أيضاً فى حاجة إلى جزء من هذا الحب . لقد عاش متصوفة كثيرون لم يعبأوا بأمر الأرض فتحققوا بالفقر والافتقار ، ومارسوا الزهد والتقشف ، ووصلوا فى إضناء الجسد إلى درجة فوق الطاقة . أما سلامان ، إنسان ابن سينا ، فكان مايزال معنيًّا بشؤون المجتمع والحياة ، ولذلك ركب فيه ابن سينا قوة خاصة بالعمل ، هى ما يرمز لها بأخت زوجة سلامان . هذه الأخت تمثل القوة العاملة إذن (ولها اعتبار بالقياس إلى القوة الحيوانية النزوعية ، واعتبار إلى القوة الحيوانية المتخيلة والمتوهمة ، واعتبار بالقياس إلى نفسها . من كتاب النجاة) ، ولقد نص الطوسى على تسميتها بالنفس المطمئنة ؛ ذلك لأنه لم يلق بالاً لتلك الاعتبارات الثلاثة ، وإنما قصر نفسه على الاعتبار الأخير ، وفيه تكون تلك القوة العاملة بالقياس إلى نفسها ، وخاضعة للعقل النظرى . ولكننا نلاحظ أن نص الطوسى غير صحيح ، لأنها فى قصة ابن سينا سيكون لها كل تلك الاعتبارات — فلا سبيل إلى تسميتها بالنفس المطمئنة إلا فى حالة ما تكون خاضعة للعقل النظرى . إنها بالاعتبار الأول تهيئ الانسان لسرعة الانفعال كالخجل والحياء والضحك . وبالاعتبار الثانى تستعمل فى استنباط الصناعات الانسانية ، وبالاعتبار الثالث ، تتولد فيها بينها وبين العقل النظرى ، تلك الآراء الذائعة المشهورة ، مثل إن الكذب قبيح والظلم قبيح . . . الخ . . . .

تلك هى المهام التى أفرد ابن سينا لها قوة خاصة فى النفس ؛ فقد كان ينظر إلى

سلامان ، من حيث أنه إنسان فى حاجة إلى التدبير والتوازن الاجتماعى ، والعناية بشؤون الواقع ؛ وهو لاهتمامه بهذا الأمر ، جعل له قوة خاصة فى النفس . إن ابن سينا ، والحق يقال ، معبر حقيقى عن روح الحضارة الاسلامية .

تلك هى الشخصيات الرئيسية فى القصة ، أما الحيش فهو يمثل القوى الحسية والخيالية والوهمية ، وهى جميعاً من أقسام النفس الحيوانية . لقد عرفنا أن زوجة سلامان تعبر عن الجانب الإرادى النزوعى لتلك النفس ، أما الحيش فيمثل الجانب الادراكى فيها ، فيحس أو يتخيل أو يتوهم . ولسوف يطول الأمر بنا ، إن نحن أخذنا فى تحليل كل قوة من تلك القوى ، وموضوعها من الدماغ ، ووظيفتها الخاصة فى الإدراك ، وإنما نكتفى هنا بأن نقول إنها جميعاً قوى تتضافر وتتفرع على الإدراك الحسى .

وهنا ينتهى تحليل شخصيات القصة ؛ لأن الطابخ الذى يمثل القوة الغضبية ، والطاعم الذى يرمز للقوة الشهوية ، ليسا فى حقيقة الأمر إلا القسمين اللذين تنقسم إليهما النفس الأمارة أو زوجة سلامان ، ولسنا ندرى على وجه الدقة لماذا أفرد لها ابن سينا دوراً خاصا فى القصة ، مع أنهما مضمران فى زوجة سلامان ، ودوريهما مضمران فى دورها . ولكن لعل ذلك كان لابراز أهمية هذه القوة بفروعها ، فلم يكتف ابن سينا بتمثيل القوة العامة ، وإنما مثّل أيضاً فروعها الخاصة . فاللذة فى الحقيقة هى المحور الذى تدور حوله كل قوى النفس الأخرى ، ولعل ابن سينا فى ذلك غير شاذ ولا مبالغ .

ها نحن أولاء . قد استقصينا كل قوى النفس عند ابن سينا ، ما عدا النفس النباتية لأنها نفس غير ديناميكية ، فلا تصلح أن تكون فرداً من أفراد قصة تقوم على الحركة . ولعلنا لاحظنا — على الرغم من ذلك التحليل — أن النفس واحدة عند ابن سينا ؛ إن كل قوة يمكن أن ترد إلى التى فوقها ، حتى لا يبقى فى نهاية الأمر إلا سلامان . . . الانسان الحى النزاع المتحرك .

٣ — عرض قصة سلامان وأبسال

« . . . والنفوس البشرية إذا نالت الغبطة فى حياتها الدنيا ، كان أجل أحوالها أن تكون عاشقة مشتاقة . » (إشارات) .

يقول ابن سينا : « إن قوى النفس لا تخلص عن علاقة الشوق ، اللهم إلا فى الحياة الأخرى » . فأنت حى لأنك محب مشتاق ، وستظل حيا ما ظلت محباً مشتاقاً . والشوق يدفع ، ويجعل للحياة معنى بوساطة الحركة التى يغرى بها ، ويحض عليها . وسلامان مشتاق ، وسيمضى به الشوق رويداً رويداً ، إلى درجة العشق . . . والعشق عندشيخنا الرئيس ، هو الابتهاج بتصور حضرة ذات ما . فالعشق حالة ستاتيكية سكونية ؛ لأنه يكاد يكون نهاية الرحلة إلى الله — فى حين أن الشوق حالة ديناميكية حركية من شأنها أن توالى الدفع والتحريك .

والآن نجد سلامان العارف ، قابعاً فى عباءته الفضفاضة . ولعله أن يكون شاخصاً بصره إلى سماء غامضة . ومن يدرى أيضاً ! لعل بعض الموسيقى كان يطوف فى المكان . إن اللحن كان دائماً وسيلة من وسائل الصوفية ، ومعيناً لهم على إدراك الحق ، والتحقق بالوجد والعشق . ولكننا لا نريد أن نقف أنفسنا على منظر سلامان . إنه من العارفين ، وهو موصّى أن يتروّض حتى يصل إلى الحد الذى يعتريه فيه الوجد ، ويستبد به الوتت ، دون أن تظهر على وجهه دلائل الوقت أو الوجد . سنتسلل إذن إلى نفس سلامان . إنها مسرح كبير توافرت فيه كل صنوف الحركة ، وفى مكان بارز يسطع النور على امرأة . إنها فاجرة خليعة متهتكة ، وهى شهية لذيذة مغرية . . من يدرى ! لعلها أن تقوم ، وتمضى راقصة الردفين ، شماء الثديين . إنها زوجة ، ولكنها فاجرة ؛ فما عليها من بأس إن هى أغرت ذلك الشاب المليح أخا زوجها . إنها مشتاقة ، يكاد لهيب الشهوة أن يتفجر من جسدها ، فلقد أعدت العدة ، ونصبت الشرك للايقاع بهذا الشاب . قالت لزوجها : اخلطه بنا ، ودعه فى بيتنا ، فنستفيد من علمه وأدبه ، ونقوم نحن على تنظيم حياته وقضاء حاجاته . وأذعن الزوج ، وجاء بأخيه إلى بيته . فاذا بالزوجة تنهض ، تدفعها قوة الشوق لتحقيق لذتها . وإذا بها تقبل على أبسال ، وتظهر له مفاتن جسدها ، وتكشف له عن معين اللذة الذى يترقرق فى لحمها الملتهب . ولكن أبسال يرتد ، بارادة بتارة حاسمة . إنه لن يتخلى عن أخيه العارف الذى يعلم عنه أنه فى سفر شاق إلى الحقيقة البعيدة . إن (أول درجات العارفين ما يسمونه هم الارادة ، وهو ما يعترى المستبصر باليقين ، أو الساكن النفس إلى العقد الايمانى فى الرغبة فى اعتلاق العروة

الوثقى ، فتحرك سره إلى القدس ، لينال من روح الاتصال ، فما دامت درجته هذه فهو مريد . إشارات .)

ولو أتيح لنا أن ننظر فى وجه سلامان ، فى تلك اللحظات ، لرأيناه زاما شفتيه ، مصلوب النظرات ، لاهث الأنفاس . لقد عقد العزم على اعتلاق العروة الوثقى . وهذه الحركة من غير شك ليست عشقاً ، كما قال الطوسى ، لأننا عرفنا العشق . إن تلك الحركة فى الحقيقة نوع من شوق الإرادة الخيرة للنيل من روح الاتصال .

سلامان الآن مريد . ومن هنا ذهب يحقق واجبات المريد ، فراح ليخفى ما دون الحق عن مستن إيثاره ، ويخضع النفس الأمارة للنفس المطمئنة ، ويلطف سره للتنبه .

ولنتسلل الآن مرة أخرى إلى نفس سلامان ، لنشهد مصرع الزوجة الفاجرة . أترانا نجدها مضرجة بدمائها ، وقد خمدت فيها جمرة الحياة ؟ كلا ! فانها لتجمع قواها جميعاً ، وتضم أعضاءها ضما ، وإنها لتستشعر فى ذاتها الحياة موفورة دافقة ، فاذا بها تتلوى كالأفعى ، لتوقن أن الحياة ما زالت تدب فى جسدها . وإنها لتنهض فجأة ، وفى عينها يتألق بريق عجيب مخيف ، ثم تمضى ، وكأنما تريد أن تذيب الأشياء بنظراتها النارية . . . وهنا تلمح أختها عاكفة على نوع من التأمل ، وقد ملأت البراءة عينيها ، واكتسى وجهها بقناع من سذاجة الأطفال . وفجأة تلمع فكرة فى رأس الزوجة الفاجرة . إنها تريد أن تنتقم ، ولسوف يكون انتقامها مروعاً هائلا ، ولسوف تحطم كبرياء أبسال تحطيما ، وتنال منه كل ما تشتاق إليه . فلتذهب إذن إلى زوجها تغريه بتزويجه أخاه من أختها . إن ذلك يجعله أوثق علاقة بالأسرة ، ويسبغ على وجوده معهما شرعية مأمونة . وتعرض الأمر على أبسال ، فلا يمانع فيه ؛ فانه مع تلك الزوجة الصالحة التى تعنى كثيراً بشؤون المنزل والحياة ، يستطيع أن يبلغ حياة أكرم وأيسر . إن اتحاد العقل النظرى ، بالقوة العملية ، من شأنه أن يجعل مصالح الواقع على خير حال .

ولكن الزوجة الفاجرة ، ما كانت لتدع الأمر يمضى فى ذلك الطريق الخير . ففى ليلة الزفاف راحت فى جنح الظلام تتسلل إلى فراش أختها . كان الظلام مخيما ، والسكون جليلا رهيباً ، وكانت زوجة سلامان فى فراش أخيه تلهث ،

ويكاد جسدها يتصبب شهوة ولذة . لسوف يأتى الآن أبسال ، وليسوف يظنها زوجه ، فيطلق نفسه وجسده ، يجوسان فى أحضانها الدافئة . ها هو ذا أبسال مقدم بخطاه الوئيدة ، وقد أخذت قطع الأثاث تبرز فى أنحاء الحجرة المظلمة ، وهو يتحسس طريقه بينها ، قاصداً مخدع العروس ؛ إنّ الشهوة فاغرة فاها ينخلع له القلب رعباً وخوفاً .

أما سلامان القابع فى عباءته الفضفاضة ، فيرتعد و يرتجف ويتصبب عرقاً . لقد راح يقدم على الشر ، ويخوض فى الخطيئة ، وهو يخدع نفسه بأنه مقدم على الخير ، وواصل إلى الفضيلة . ما أكثر ما نرتكب الشر ، لأننا قنعناه بصورة الخير ! فان شارب الخمر يقول لك إنه يتداوى بها من آلامه . والخلاص من الألم حركة طبيعية ، ولكن الخلاص منه باغراقه فى بحر من الخمر حركة خداعة ، فيها نوع من إضفاء الخير ، على ما هو شر ؛ هذا إلى ما فى ذلك من استهتار بقيمة الألم ، وزراية بجوهريته وأصالته . إن سلامان يعانى مثل تلك الأزمة ، فان عقله النظرى يكاد يهوى بين براثن القوة الشهوية ، وهو يخدع نفسه بأن ذلك حركة خيرة لا غبار عليها . إنه فى حالة سراب روحى ، لعلها أن ترجع به تلك الخطوات التى بذل الجهد الجهيد لقطعها فى طريق الله . فتراه لذلك يرفع ذراعيه إلى السماء ، يطلب العون ، ويستدر الرحمة ، وهنا فقط تهلل أسارير وجهه بنور إلهى ، وتتألق على لحيته البيضاء أنوار قدسية . أجل ! لأن أبسال ، كان قد وصل إلى فراش عروسه ، وأوشك أن يهم بزوجة أخيه ، وكادت تلك الزوجة الفاجرة تنال مأربها وتشبع لذتها . لقد مدت إليه ذراعين عاريتين ، وأطلق لها هو جسدا مشتاقا . . . وحينما كان على حافة الهاوية انبلج برق لامع فى ثنايا الغيم المظلم فأراه وجهها ، فارتد .. لقد همت به وهم بها ، لولا أن ذكر برهان ربه ، فأنقذ سلامان بخطفة إلهية سنحت له من جانب القدس .

لقد رأينا سلامان وقد وصل إلى الدرجة الأولى من مقامات العارفين ، فكان ينحّى مادون الحق عن مستن الايثار ، ويطوع النفس الأمارة للنفس المطمئنة ، ويلطف سره للتنبه ، وهو الآن يصل إلى الدرجة الثانية ؛ فانه (إذا بلغت به الارادة والرياضة حدًّا ما ، عنّت له خلسات من اطلاع نور الحق عليه ، لذيذة كأنها بروق تومض إليه ، ثم تخمد عنه ، وهو المسمى عندهم أوقاتاً . . . إشارات .)

و إذن فما يزال سلامان ، سائراً فى طريقه السليم إلى الله . ولما كانت ذكرى الخطيئة التى كاد يتردى فيها ، تعذبه ، أخذ يسرى عن نفسه ، فحشد جيش الحواس ، وذهب يغزو مملكة الأرض ، ويدبر شأنها ، ويقيم ما اعوج من أمرها . فهو بعقله النظرى يستشرف السماء ، وحينما يخضع الحواس لنفسه العاملة ، وهى النفس المطمئنة لأنها خاضعة بدورها للعقل النظرى ، يستطيع أن يدبر الأرض ، فالقوة النظرية إذن ، هى ملكة تفتح السماء والأرض جميعاً ، وتخضع الشرق والغرب كليهما ؛ فلا بأس أن يشبهها ابن سينا بذى القرنين الذى ملك الخافقين .

ولسنا نريد أن نفصل الأمر مرة أخرى ، فى عودة الزوجة الفاجرة لاغراء أبسال ، فانها حركة شبيهة بالحركة الآنفة تماماً ، ولكن ذلك لا يسوّغ عدم ذكر الطوسى لها . إن تلك العودة هامة للغاية ؛ لأنها تبين لنا إلى أى مدى كان ابن سينا يدرك القوة الشهوية التى تجتاح الانسان ، وهى من ناحية أخرى ، تتيح فرصة جديدة ، ليترقى سلامان ، بارتداد أبسال عن تلك المرأة ، فى سلم العارفين درجة أخرى .

وعلى أثر هذه الحركة الثالثة ، يعلم سلامان أن القوة الشهوية ما زالت تعيش ، فيقسو على نفسه فى الرياضة ، ويخضع جسده لكل صنوف الحرمان . إن الناظر إلى سلامان الآن يراه وقد هام على وجهه ، نحيلا هزيلا ، قد نضا جسده ، وكان يتجرد منه . إنه ولهان مشبوب ، والسماء من فوقه تنزاح عنها الغيوم قليلا قليلا ، وهو ما ينفك يصوب إليها بصره وبصيرته ، يريد أن يكشف السر ، ويطلع على المكنون ، ويهتك حجاب المجهول . إن الفلسفة ، كما يقول أفلاطون ، هى ممارسة الموت . إن الذى يصل إلى قمة الحياة ، يشرف على هاوية الممات . ولقد ذهب سلامان يمارس الموت فعلا ، ولكن الموت الذى كان يعانيه إنما هو موت الجسد ، والبقاء بالله يكون بالفناء بالجسد ؛ ذهب لا الألم يثنيه ، ولا بعد الغاية يوئسه ويضنيه ، بل مضى وهو الانسان العاقل ، يريد أن يحصل على اللامعقول ، والحق أنه لم يكن عاقلا بكل معنى الكلمة . وكيف يكون عاقلا وقد تعطلت حواسه ، وخمدت شهوته ، واندثرت قواه العملية ؛ بل إن قوته النظرية ، تكاد تكون هى أيضاً قد توقفت . هنا فقط ، يسقط الصوفى الذى يعشق الله ، يسقط إعياء وهياماً . . . فاذا بمرضعة من حيوانات الوحش ، تبرز من بعيد ، وتهرع إليه ، وتدر بين شفتيه شراباً شهياً ، لعله أن

يكون من خمرة الألوهية . إنسان ابن سينا الآن مهزول البدن ، ولكنه مبتهج الروح ، بل هو مبتهج الروح لأنه مهزول البدن ، وهو خالص للنيل والاتصال ؛ فان فيض الكمال عليه الذى يمثله ما درّت عليه تلك المرضعة من شراب ، يدل على أنه قد انتقل من مرتبة الرياضة ، حيث كان مريداً ، إلى مرتبة النيل ، (فصار سره مرآة مجلوة ، ودرت عليه اللذات العلا ، وحينئذ يفرح بنفسه لما بها من أثر الحق ، وكان له نظر إلى الحق ، ونظر إلى نفسه ، وكان بعد متردداً . إشارات .)

أترى سلامان قد وصل ؟ لا ! فمازال له نظر إلى نفسه ونظر إلى الحق . والمحبوب يأبى أن يكون له شريك ، وألا يؤثر وحده بالحب . وعاشق الله ، هو عاشق الوجود ، والوجود هو الكل . فلا بد لسلامان من أن يمضى خطوة بعد ذلك ، فيكون نظره إلى نفسه ، لا من حيث هى نفس ، ولكن من حيث هى عاشقة ، وحينئذ لا يكون ثمة شئ إلا الله . وهنا تتحقق الوحدة ، لا نقول وحدة الوجود ، كما قال ابن عربى ، بل وحدة الشهود كما قال ابن الفارض .

ولكن سلامان ، على كل حال ، لم يكن من المتصوفين ، بل كان من العارفين ، والعارف عند ابن سينا ، تقوم حياته أصلا على العقل والتأمل ، لاعلى العاطفة والارادة ، كما تقوم حياة الصوفية الخلّص . والعقل معتدل متزن ، يقبل الحلول الوسطى ؛ ولذلك أخذ سلامان ، وقد رأى حاله من اضطراب فى شؤونه الدنيوية ، وتعطيل لبقية قواه النفسية . أخذ يعنى بتلك القوى من جديد ، وعاد ينظم حال رعيته ، ويصلح ما اختل من أمرها .

فى سلامان الآن عقل نظرى نهكه طول التأمل ، وأضناه الصراع الطويل مع القوى الشهوية ، و برّح به العشق ، وأضعفه مرور الزمن . أو ليست هذه فرصة لأن تكيد له النفس الأمارة من جديد ؟ إنها ضربة أخيرة ويقضى على أبسال العنيد المتكبر ، وتنتصر الزوجة الفاجرة ، وتحقق الأمنية التى عاشت طوال حياتها تحاول تحقيقها . إنها لن تلجأ فى هذه المرة إلى أختها ، ولن تذهب بنفسها ، و إنما ستلجأ إلى أشد الناس ولاء لها ، وهما الطابخ والطاعم . وما كانت فى حاجة إلى أن تغريهما أو تمنيهما ؛ إنهما رهن إشارتها وطوع أمرها ؛ فما هى إلا أن تأمر حتى يذعنا لأمرها . وقد أمرتهما فعلا بدس السم لأبسال . لقد تعرض

سلامان لمؤامرة نفسية أخرى . أتراه يهوى إلى الخطيئة بعد أن فر منها مراراً ، ووصل فى مقامات العارفين إلى درجة النيل ؟ أترى كان ابن سينا من التشاؤم بحيث يجعل كل هذا الجهاد والصراع يذهبان عبثاً ، فيموت الانسان ، وهو مكبل بأغلال الخطيئة ؟ قال الطوسى فى شرحه للقصة ، باضمحلال أبسال نتيجة للسم الذى دسته له الزوجة بمعاونة الطابخ والطاعم . وسيكون آخر عهدنا بسلامان ، وجهاً مربدّاً ، وقبضتين تهددان السماء ، وقدمين تغوصان فى مستنقع من اللحم والدم !

كلا ! ما كان ابن سينا ليجرؤ على إنهاء القصة بتلك المأساة المروعة . إن خطة القصة موضوعة من قبل فى مقامات العارفين ، و إن السير الطبيعى لبطل القصة لينأى به عن تلك الخاتمة . لقد اضطرب الطوسى هنا ، وحسب أن الزمان محطم لكل شئ ، حتى القوة النظرية ، مع أن هذا يتعارض مع مذهب ابن سينا فى النفس عامة . لقد بلغ العقل النظرى فى درجة ترقيه ، إلى أن أصبح عقلا مستفاداً ، تشرق عليه المعقولات المحضة من العقل الفعال . وهو لأجل ذلك يصبح شبيهاً بذلك العقل الذى رمز له بحى بن يقظان . وحى بن يقظان لا يموت أبداً ، ولا يضمحل البتة . إنه (فى طراوة العز ، لم يهن منه عظم ، ولا تضعضع له ركن ، وما عليه من المشيب ، إلا رُواء من يشيب — فى أسرار الحكمة المشرقية) لقد كان العقل النظرى الانسانى ، دائم الشوق إلى ينبوع الشباب، حيث الحسن حجاب الحسن ، والنور حجاب النور ، وحيث توجد إمكانية الخلود . إن حى بن يقظان هو الذى يفيض على أبسال العلم والخير والكمال ، وعنده ينبوع الشباب . فهل يدرك الهرم أبسالا فتقتله الشهوات ، وقد كاد يمرق إلى الدرجة الأخيرة من درجات العارفين؟ وقصيدة النفس لابن سينا ، تقول بما لا يدع مجالا للشك ، إن النفس فى جزئها النظرى ، خالدة ، لا تندثر ولا تضمحل . ولذلك فان النفس الأمارة ، بتآمرها مع القوتين الشهوية والغضبية ، على دس السم لأبسال ، لا تعنى إلا أن ابن سينا قد قدم بهذه الحركة السلبية الأخيرة ، ليتمكن من عرض الحركة الإيجابية الأخيرة . و إذن فلن يكون آخر عهدنا بسلامان ، تلك الصورة التى تكشف عنه ساقطاً فى حمأة الرذيلة ، و إنما ستكون صورة أشبه بصورته ، حينما كاد عقله النظرى : أبسال ، يخضع للزوجة الفاجرة فى ليلة العرس . وهنا يذهب سلامان يستوحى ربه ، ويستدر نوراً

يكشف له عن حقيقة تلك المؤامرة الجديدة . وهنا أيضاً ينكشف له الحق ، ويتضح له الأمر . يدرك سلامان بوحى من الله ، أنه كان مسوقا إلى الشر ، وأنه يجب أن يتخلص نهائيا من حواسه ، فلا يلبث أن يقضى عليها قضاء مبرماً . ومجرد الاستيحاء دليل على أن النفس النظرية ، ما تزال تعمل فى منتهى قوتها ؛ لأن هذا الاستيحاء الارادى هو درجة سامية من مقامات العارفين . لقد كانت معارفة الحق تعنّ له أحياناً ، أما وقد صارت تعن له متى شاء ، فتلك درجة سامية من درجات المعرفة الفيضية .

لقد تركنا سلامان ، فى مرتبة النيل ، يتردد بين نفسه وبين جناب القدس . أما بعد أن هزم النفس الأمارة هزيمة لا رجاء بعدها ، فلا بد أنه (يغيب عن نفسه فيلحظ جناب القدس ، وإن لحظ نفسه ، فمن حيث هى لاحظة ، لا من حيث هى بزينتها ، وهناك يحق له الوصول . إشارات .)

لقد هجر سلامان حواسه وقوتيه الغضبية والشهوية ، وفوض لغيره أمر ملكه ، أى إنه هجر استخدام قوته العاملة أيضاً ، وفرغ هو بكل قوته النظرية للوصول الذى أصبح حقًّا له . أتراه وصل ؟ من يدرى !

إن التحقق التام بالله على هذه الأرض غير ممكن . وقديماً أخبرنا الحلاج بأن الفراشات ، طفقت تحوم حول المصباح إلى الصباح ، وعاد بعضها يخبر عن نوره ، وعاد بعضها الآخر يخبر عن حرارته ، وبعضها الأخير ، ما عاد ، ولا أخبر بشئ ؛ لأنه احترق فى النور .

ما كان سلامان ، إنسان العصور الوسطى ، يعلم أن الكواكب من تراب ، وأن السماء من غازات ، وأن فكرة الله من خلقه وإبداعه . ولكن ، وعلى الرغم من ذلك ، فان إرادته الطامحة ، جديرة بالاعجاب ، لأنها إرادة حققت إمكانيتها ، وتحققت بأصالتها وطبيعتها ، فأرادت كل شئ حتى اللامعقول ، أو بالأحرى اللاموجود .

عباس أحمد